الادب العراقي المعاصر

*

لم يصادف أدب أي من الاقطار العربية من الاهمال والتجاهل والتهوين من شأنه على يد الدارسين الادبيين مثيل ما صادفه أدبنا العراقي المعاصر ، كأن لم يكن أغنى هذا الادب مسهما في التعبير عن مطالب المجتمع العربي وتطلعاته ، وكأن لم يقم أعلامه وشخوصه بدورهم الخطير في تطوير الحركة الادبية ويرصدوا مجهوداتهم وطاقاتهم الفكرية لاداء رسالتهم حياله على غرار ما هو معهود عن أسلافهم من اعلام الادب العربي القدامى ممن تقادمت عليهم العصور والاحقاب وظلت آثارهم الادبية من دواوين الشعر وكتب النقد والرسائل الفلسفية وغيرها تتداول الايدي وتنطق بما توفروا عليه سابقا من سمو المواهب وغنى الملكات ، وتأتي لهم من العمق في البحث وبراعة الاستدلال والقدرة على الاحاطة الوافية الشاملة بأي من الموضوعات واستسهال تناوله ، وتذليل ما قد يعتور مسالكهم الفكرية من الوعور والصعاب ، فقد درج جل مؤرخي الادب العربي المعاصر ، « من غير العراقيين ! » على الغض من قيمة النتاج العراقي الذي يؤلف جانبا منه ،فلم يحصل لواحد منهم أن أولى ثمار القرائح الادبية في العراق قسطا من اهتمامه ونصيبا من عنايته مثيل ما يرصده منهما لادب بقية الاقطار العربية في ابحاثه ودراساته . تعن لنا هذه الخاطرة ، في الوقت الذي يطالعنا الدكتور زكي المحاسني بكتيبه : نظرات في ادبنا المعاصر ، الذي يدخل ضمن سلسلة المكتبة الثقافية الصادرة عن وزارة الارشاد القومي في الجمهورية العربية المتحدة ، ولسنا في معرض ازجاء النقد لمنهجية الدكتور المحاسني في الاطلاع بنظراته الثاقبة النفاذة ، وليس في نيتنا البتة تقديم فكرة مجملة وعامة عنه ، وان كنا نحسب ان الادب العربي الحديث قد قطع اليوم في مسيرته من المراحل الشاسعة وبلغ من الاشواط البعيدة وجاز من الحدود الكثيرة بحيث لم يعد في امكان الباحث الادبي ان يسلط عليه نظراته العجلى ليفرغ منها لتدوين ما عن له وخطر في واعيته من الانطباعات والمؤاخذات ، ان فعلة كذي لا يمكن بحال ان تخدم أدبنا وتطوره ان لم تبخس من أقدار أعلامه وافذاذه وتثل من مكانتهم وتتنكر لما أسلفوه من الاثار والخدمات وأوفت عليه عبقرياتهم النادرة من الابداع والنضج والاكتمال .

يتناول الدكتور محاسني في كتيبه المبتسر الوجيز ذاك ، تقييم انبعاث الحركة الشعرية في أخريات القرن الفائت ويرصد لمسارها وتطورها حتى الحقبة التاريخية التي نعايش ويصنع مثل صنيعه هذا ازاء أدب القصة والمسرح والمقالة والنقد ، باسلوب مدرسي شائق على الرغم من كونه لا يعنى بعرض الاراء المختلفة بقدر ما يهتم بازجاء الاحكام المقررة وكأنها حقائق مسلمة لا تقبل الدحض والتفنيد ويصح استهدافها للنقاش .

ان المطالع المنصف الذي يرود الحقيقة ويعنيه اقتفاؤها والاستهداء بها في مجالات حياتنا المختلفة دون ان تستبد به نوازع الطائفية الفكرية ومشاعر الاقليمية الضيقة ، سيصعق حتما اذ يستجلي ان المحاسني لم يكلف نفسه جهد تحليل النتاج العراقي او الالماح الى بعض آثاره والتنويه بأسماء جهابذته وفي الشعر والقصة على وجه الخصوص ، أسوة بما استتبعه واختطه حيال نتاج الاقلام الكريمة في بقية أقطار العروبة ، ولا يشفع له أن لا يعتد كتيبه « تاريخا للادب الحديث » بل يعتبره ويدخله ضمن اطار « دراسة ونظرات ! » من أن يستهدف لشتى الظنون ويعرض لمختلف المطاعن ! .

فأين هي الصفحات العديدة التي يحسن ـ ولا نقول يجب ـ بالدكتور الفاضل ان يخصصها من مؤلفه النفيس لدراسة التجديد في اشعار فحول الشعر العربي في العراق ، الرصافي الزهاوي ، الكاظمي ، الازري وخيري الهنداوي والبصير والشرقي والشبيبي فالجواهري والحبوبي وحافظ جميل وغيرهم من النابغين والمجودين الذين تسنى لهم أن يعالجوا في شعرهم مختلف الموضوعات ويطرقوا متباين الاغراض ويسهموا في مد معين الشعر العربي برافد غزير لا ينقطع مسيله وتنضب ثرارته .

وأين هم أعلام القصة العراقية الحديثة أمثال ذو النون أيوب وعبد الملك نوري وادمون صبري وكثار غيرهم ممن اتسمت آثارهم القصصية بنزعتها الانسانية ورسالتها المجتمعية ، ويبدو ان الدكتور لم يطلع بعد على اعداد الآداب الاولى الصادرة عام ١٩٥٣ بغية تدارس البحث المسهب المعمق الذي أوقفه الدكتور سهيل ادريس لتسجيل انطباعاته المجملة وخطراته المتفحصة حول القصة العراقية الحديثة ، مما يصح معه اعتبار هذا البحث المسهب من مصادر دراسة الادب العراقي !

ولم يغفل المؤلف المحترم عن أهمية الابحاث اللغوية والدراسات الادبية القيمة التي توفر على اعدادها اساتذة الجامعة عندنا امثال الدكاترة السامرائي والوائلي والمخزومي وعلي الطاهر ومصطفى جواد واضرابهم ، في معرض رصده للدراسات اللغوية المعنية بتطوير لغتنا وانمائها واثراء أصالتها .

ان شتى الذرائع والحجج التي يركن اليها الباحث الادبي في تبرير قصوراته الفكرية وتحريرها من قبيل قلة توفر المصادر وتفرغه لدراستها والاطلاع عليها ، لا تعصمه من الريب! وتدفع عنه الشكوك ! وتنفي من الاذهان والعقول اتهامه بتزييف التاريخ الادبي ومسخه وتحريفه والاستلال من اقدار نبغائه والغمز من مكانتهم ولا تفقد الامل البتة في أن يطلع الدارسون الادبيون المنصفون في أيام قادمة بدراساتهم القيمة التي يصدرون بها عن فكر ثاقب وضمير نقي .

بغداد ـ مهدي العبيدي